النهار ٣٠ حزيران ٢٠١٨

قضايا

الإراديّة السياسيّة ومحاذيرها: المصارحة "الشهابية" مرجعاً؟

الأب صلاح أبوجوده اليسوعي-أستاذ في جامعة القديس يوسف

ألقى النقاشُ الذي دار على صفحات "النهار" بين الأستاذ جهاد الزين ووزير العدل الأستاذ سليم جريصاتي، الضوءَ على مسألة حرجة تتّصل بطريقة تصرّف السلطة إزاء التحدّيات الراهنة الداخليّة والخارجيّة على السواء. يبرز في هذا النقاش تباينٌ مألوف بين نظرةٍ إلى البلاد وقد أصبحت منذ ما بعد اتّفاق الطائف خاضعةً لتوازنات طائفيّة داخليّة متفاقمة تتحكّم بآليّات الحكم، وصراعات مصالح إقليميّة ودوليّة نتائجُها حاسمة لاستقرارها؛ ونظرة أشدّ تفاؤلاً ترى في بعض إنجازات السلطة على المستويَين الداخليّ والخارجيّ باكورة إنجازات أكثر وأكبر ستشمل مساحة الوطن كلّه. غير أنَّ الحراجة لا تقتصر على هذا التفاوت التقليديّ في النظر إلى الواقع وتقييم الإنجازات في ضوء إشكاليّات الواقع وحجم تحدّياتها فحسب، بل تكمن في ما يحرّك النظرة التفاؤليّة الشديدة الراهنة، ألا وهي "الإراديّة السياسيّة"

(Political voluntarism) التي يستند إليها شعار "القوّة" الذي يطبع العهدَ وفريقه السياسيّ. وخيرُ تعبير عن هذا التوجّه، موقفُ معالي الوزير جريصاتي (مقاله في ٢٠١٨/٦/٩) –في سياق الكلام على موضوع محاربة الفساد والإصلاح والنهوض بمشروع الدولة المركزيّة القويّة– إذ دعا إلى الاعتصام "بحبل الإيمان بالقائد والسيرة والنّهج والبرنامج والخطاب العالي". ولكن هل تتوافق هذه الإراديّة السياسيّة وتوجّهاتها مع الواقع اللبنانيّ؟ وبكلام آخر، هل يمكن هذه الإراديّة السياسيّة أن تؤدّي في الإطار اللبنانيّ إلى تغيير فعليّ عميق أم أنّها مسألة بلاغيّة قد تنطوي على مخاطر؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ كلّ خطاب سياسيّ يحمل برنامجًا تغييريًّا يستند إلى إراديّة سياسيّة. ولكن هنالك إراديّة صرف وأخرى تتّصف بالاعتدال. في ما خصّ هذه، هنالك ثمّة مراهنة على الإرادة الفرديّة ولكن بتعقليّة ناتجة من تأصّلها في واقع معقّد ليس من السهل تغييره. وفي هذه الحالة، تقوم جدليّة حيويّة ودائمة بين الإراديّة والتعقليّة. فمن جهة، تصرّ الإرادةُ على التغيير تبعًا لأهداف جليّة؛ وتُجبر التعقليّةُ الواقعيّةُ الإرادةَ على سلوك طريق اتّخاذ قرارات موضوعيّة وفَطنة تتوافق وتحدّيات الواقع بحيث يأتي التغيير تدريجيًّا ولربّما ببطئ شديد، من جهة ثانية. غير أنّ المشكلة هي في إرادةٍ سياسيّة تنزع إلى الظنّ بأنّ قوّة الإرادة وحدها تكفي لتغيير الواقع، وبالتالي تعكس القراراتُ النزعةَ إلى إحداث التغيير الفوريّ ولو بالقوّة؛ فيصبح الواقع في نهاية الأمر مدعوًّا إلى الخضوع للإراديّة السياسيّة. وبكلام آخر، تأتي خياراتُ الإرادة تبعًا للتعقليّة متوافقةً وما يراه العقل ممكنًا واقعيًّا من دون أن يؤدّي هذا إلى فقدان الوجهة أو رؤية الهدف النهائيّ، في حين أنّ الإراديّة تميل إلى السلوك تبعًا لما تراه الإرادة رؤيةً سياسيّة خلاصيّة يجب أن ينصاع الواقع لها، أي الأوّليّة هي للإرادة والعمل بموجبها، وليس للتعقليّة الواقعيّة. ولا ريب في أنّ أوليّة الإرادة، في هذا التوجّه، لن تحقّق رؤيتها اليوطوبيّة، إذ يستحيل عليها تغيير مسار الأحداث بالإكراه، بل لعلّها تؤدّي إلى أزمات شديدة وكوارث كما تبيّنه الخبرات التاريخيّة الحديثة والمعاصرة في الشرق والغرب على السواء. فالتاريخ يزخر بإراديّين أقحموا بلدانهم في مغامرات انتهت بالفوضى والدمار. وفي الحقيقة، لا

تلبس الإراديّة السياسيّة وقد تخلّت عن التعقليّة أن تجد نفسها في مأزق: إمّا أن تتمسّك بنهج إخضاع الواقع لها مع كلّ مخاطر مثل هكذا موقف، وإمّا أن تتحوّل إلى مجرّد خطاب سياسيّ عالي السقف وغير منسجم وسلوك ممثّليه على أرض الواقع، أي يصبح ثمّة شرخ بين المبادئ التي يُجاهر بها هذا الخطاب، وطريقة العمل التي تنقاد للعادات والتقاليد الشائعة التي يهدف الخطاب إلى تغييرها.

بالطبع، لا تعني التعقليّة التي يجب أن تواكب الإراديّة السياسيّة الاستسلامَ للعادات والتقاليد الشائعة، ولا التخلّي عن المبادئ السامية، بل إيجاد المدخل إلى إحداث التغيير المنشود تدريجيًّا. وعندما نأتي إلى الإطار اللبنانيّ، تبرز الإراديّة الشهابيّة مجدّدًا نموذجًا ملائمًا. يُشير الأستاذ جهاد الزين (مقاله في ٢٠١٨/٦/١٢) إلى بيان عزوف الرئيس شهاب عن الترشّح للرئاسة العام ١٩٧٠ الذي اعتبره الأستاذ جهاد "أحد أهمّ نصوص التاريخ السياسيّ اللبنانيّ الدولتيّ المعاصر". لقد صارح الرئيس شهاب اللبنانيّين في ذلك البيان بقوله: "إنّ المؤسسات السياسيّة اللبنانيّة والأصول التقليديّة المتبعة في العمل السياسيّ لم تعد في اعتقادي تشكل أداة صالحة للنهوض بلبنان وفقًا لما تفرضه السبعينيّات في جميع الميادين، ذلك بأنّ مؤسساتنا التي تجاوزتها الأنظمة الحديثة في كثير من النواحي سعيًا وراء فاعليّة الحكم، وقوانيننا الانتخابيّة التي فرضتها أحداث عابرة ومؤقتة، ونظامنا الاقتصاديّ الذي يُسَهِّل سوءُ تطبيقه قيام الاحتكارات، كلّ ذلك لا يفسح في المجال للقيام بعمل جديّ على الصعيد الوطنيّ". ومع هذا، فما من أحد يُنكر إنجازات الرئيس شهاب الإصلاحيّة في مختلف القطاعات العامّة إبّان رئاسته، إصلاحات لم يشهد تاريخ لبنان مثيلاً لها إلى اليوم، ولا مجال لتعدادها في هذا الموضع. وبصرف النظر عن "الزهد" الذي تميّز به الرئيس شهاب في علاقته بالسلطة التي جعلت من قرار عزوفه عن الترشّح إلى الرئاسة سهلاً، فإنّ بيانه بحدّ ذاته يمثّل صدمة إيجابيّة للضمير اللبنانيّ، ويُظهر بالتالي سبيل الإراديّة السياسيّة التعقليّة، إذ إنّه يخاطب "القاعدة الشعبيّة" التي بدعمها فقط ينجح كلّ مسعى إصلاحيّ.

قد يبدو لأوّل وهلة أنّ مصارحة القاعدة الشعبيّة بالتحديات المحليّة والإقليميّة التي تحول دون بناء نظام ديموقراطيّ ومواطنيّة حقّة، مضيعة للوقت، في ظلّ جوّ محليّ وإقليميّ تسوده طائفيّة متفاقمة، وصراعات على السلطة داخل الطائفة الواحدة. ولكن يجب ألاّ ننسى أنّ الذهنيّة اللبنانيّة متناقضة، إذ إنّها تتمسّك بالطائفيّة وتمقتها في الوقت عينه. أمّا تمسّكها بها فلأنّها نشأت عليها ولا تجد لها بديلاً، وأمّا كرهها إيّاها فلأنّها تختبر أنّها تحوّل الحياة إلى تعاسة وتغلق كلّ أفق بمستقبل أفضل. لذا، فكلّ خطاب يتوجّه إلى القاعدة الشعبيّة ويصدر عن إراديّة سياسيّة تعقليّة ويتّسم بالحكمة والصراحة والصدق، سيلاقي ردودًا إيجابيّة وسيساهم في تقوية الوعي الوطنيّ وبناء وطن "قويّ".